خاتمة المطاف

السادات ما له وما عليه

تقييم ونقد موضوعي لسياسته ومنهجه في الحكم

- يكون من الخطأ في التقييم والنظر إلى الأشياء والشخصيات أن نراهما بعين الرضا فقط.. فعين الرضا ستكون «كليلة» بالنسبة لعيوب «الرجل» ومثالبه.. كما أنه لا يتوجب أن ننظر إلى «الشخصيات التاريخية» بعين السخط، حيث أن عين السخط تبدي المساوئ والعيوب والأخطاء، وتظهر المسالب واضحة للعيان بشكل مضخم مبالغ فيه.

وقد صدق الشاعر العربي حين قال:

وَعَينُ الرِّضَا عن كُلِّ عَيْبٍ كليلةٌ كما أن عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَسَاوِيا

-كما لا يتوجب - أيضًا - ونحن بصدد تقييم «الشخصيات التاريخية» أن ننظر لها بمنظار نفسي «بحت» ونحاول أن نفتش عن أمراضه وأحقاده ونواقصه.. فهذا تقييم «معوج» و«فاقد» للمنهج العلمي الدقيق!! لأنه علاوة على صعوبته يحتاج إلى أدوات طبية وفحص يمارسه طبيب متخصص.. كما أن هناك من القرارات التاريخية ما يصعب تفسيرها وإيعازها إلى الجانب النفسي والحالة المزاجية والمشاعر الداخلية والباطنية للحاكم أو الزعيم.. فهذا فهم قاصر ومحدود، وإنما يتوجب بالفعل ونحن بصدد البحث عن شخصيات تاريخية ودراستها أن نراعى التقييم والتقويم من خلال ما قدمه من تضحيات وما أخطأه من أخطاء أي ما له من إيجابيات وأفعال ومكاسب ومحامد وما عليه من أخطاء وسلبيات وخسائر ومذام خطاياه.

-كما أن الاعتراض على أن السادات لا يُحسب من الشخصيات

التاريخية «النافذة» في مصر يكون منظارنا له من خلال «عين السخط».. فالرجل مارس السياسة والعمل السري والوطني قبل الثورة، وله ظروفه وملابساته في حينها، والحكم عليه دون مراعاة الظروف الموضوعية يكون تعنتًا في الحكم وتصيدًا للأخطاء والنظرة المعيبة الناقصة للأحداث والأمور.

- والرجل بعد الثورة اعتلى سدة الحكم ومقعد الرئاسة بعد وفاة الزعيم جمال عبد الناصر والذي جعله نائبًا له.. وهذا الرجل بعد أن جلس على مقعد الرئاسة اتخذ من القرارات أخطرها تأثيرًا على حياتنا وحتى الآن.. وفي مقدمة هذه «القرارات الخطيرة» قرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ (رمضان ١٣٩٣هـ)، وزيارة إسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧، وقرار التسوية والاتفاق مع إسرائيل في معاهدة السلام، والتي ما زالت مؤثرة في حياتنا السياسية حتى الآن.. والتي من خلالها دافع عن نظريته بأن خلافنا مع إسرائيل يتمثل في وجود «حاجز نفسي» لابد من إزالته للعيش في سلام!!

- ويكون لدي سؤال مركب ومهم أقدمه للذين يقررون ويصرون على اتهام السادات بـ «العمالة» ومضمونه: إذا كان عبد الناصر يستفيد من السادات قبل الثورة من خلال علاقته بالحرس الحديدي و«القصر الملكي»، فكيف أبقاه بجانبه حتى جعله «نائبًا له»، وتولى سدة الحكم بعد وفاته.. وفي المقابل أيضًا لدي الجزء الآخر من السؤال وهو: لماذا اتخذ السادات هذا الموقف من عبد الناصر وحاول أن يمشي على خطاه «بممحاة» ويصفه بالديكتاتور وتبني المذاهب الاشتراكية بغباء.. إلخ.. هل ما حدث من مجموعة مايو ١٩٧١ أم أنه كان يضمر الكراهية لعبد الناصر.. لعل ما كتبناه من قبل قد أوضح رؤيتنا في هذا الأمر. والأمر يحتاج لتجلية من خصوم السادات قبل مؤيديه!!

- ولكن ما يعنينا الآن هو إبداء عديد من الملاحظات الهامة والتي تحوي نقدًا وتقييمًا لسياسات السادات ومنهجه في الحكم وذلك لتجلية ما للسادات من إيجابيات وما عليه من سلبيات نطرحها في الآتي:

الأولى: أن مسألة لون البشرة الخاصة بالسادات من الأشياء التي أخذ على مثيرها «ضجة كبرى» لأن اللون لا يحول دون تحقيق الأهداف الكبرى أو الإنجازات العظيمة، كما أنه لا يقعد «المرء» عن تحقيق الهمم ومواجهة التحديات ، كما أنه – أيضًا – لا يحول دون الوقوع في بئر الحضيض وأسافل الأعمال وأحطها.. فالمسألة لم يكن يُحسب لها حساب في تسيير حركة الأمم والمجتمعات.. فلا يجوز إثارتها على اعتبار أنها مكمن العقد الشخصية والانفعالات الشائكة وعقد النقص والشعور بها.

الثانية : أن عمل السادات المبكر في «العمل السري» وممارسته السياسة قبل قيام الثورة وسجنه وفصله قد صبغ شخصيته بالأسلوب «الانقلابي والتآمري» ، وهذا ديدن العمل السري وآثاره المقيتة .. كما جعله العمل السري شخصية شكاكة مرتابة فيمن حوله وحذرًا من الوقوع في أخطاء تسوقه إلى المحاكمة أو المقصلة (كما هو واضح منه ليلة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) .. كما أن العمل السري يدفع المرء أن يعتمد على نفسه ، ويحتفظ بأعصابه ، ولا يشعر أحد فيما يفكر فيه توجسًا وخيفة ويعتمد الأسلوب المفاجئ أو ما يطلق عليه أسلوب «الصدمة» في اتخاذ القرارات والأفعال.. وهذا إذا كان مقبولًا في مرحلة ما قبل الثورة لتزايد العمل السري وخطورته.. فما بال السادات يستخدم هذه الأساليب بعد اعتلاء كرسي الرئاسة ومقعد الحكم.. وهنا يكون المأخذ والنقد .. ولكن أستطيع أن أقول أن نجاحه في استخدام أسلوب المناورة وإظهار الضعف والمفاجأة في الهجوم وصدمة الخصم جعلته ينجح في القضاء على مراكز القوى بمعونة الليثي ناصف (١٩٢٢-١٩٧٣) قائد الحرس الجمهوري واستشارة هيكل ونجاحه في تفكيك المجموعة المتنافرة والتي ما بينها من خلافات وانشقاقات أكثر مما بينها من اتفاق وتعاون!!!

الثالثة : يُحسب للسادات موقفه في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونجاحه في تنفيذ حالة التمويه والمداراة والتضليل الإعلامي والسياسي للعدو الإسرائيلي والتي كانت لها دور في تحقيق العبور وتحطيم خط بارليف والقضاء على أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وتحقيق النقيض الموضوعي

لحرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧ من الناحية العسكرية والسياسية، وجعل منظور استراتيجي عالمي لحرب أكتوبر في سجل التاريخ العسكري العالمي.. ولكن يؤخذ عليه إدارته للمعركة وما بعدها وتسرعه بالاتصال بالإدارة الأمريكية ، وإعلانه أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب ضد إسرائيل!!!

الرابعة: فشل السادات في تثبيت نظرية «الحاجز النفسي» بين العرب وإسرائيل بما تحمله من تشكك وظنون وتخوفات من التعامل مع الآخر.. وإن تجاوز هذا «الحاجز» سيصنع سلامًا «حقيقيًا» مع إسرائيل حسب هذه النظرية «الساداتية» بينما فكرة الصراع بين العرب وإسرائيل هي في حقيقتها صراع وجود وليس صراع حدود أو حواجز وموانع نفسية داخلية، فليس صحيحا الإعراب ، ومن وجهة – النظر الساداتية – والترويج لها.. فقد دفعته قناعته إلى زيارة إسرائيل وعقد اتفاقية سلام «هشة» رغم بقائها حتى الآن ..!!

الخامسة: فشل «السادات» في تحقيق غرضين ادعاهما في مشروعه السياسي وهما: تحقيق الرخاء والرفاهية للشعب المصري بعد طول عناء، وثانيهما: نشر السلام وإنهاء الحروب والصراعات وأوضارها بعد أن عانت مصر من ويلات الحروب منذ عام ١٩٤٨م .. كما أن السادات لم يستطع تحقيق نتائج لاتفاقية «الحكم الذاتي» الفلسطيني وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني في استعادة أرضه وتقرير مصيره.. غير أنه يُحسب له استعادة أرض سيناء بالكامل من براثن العدو الصهيوني وإن كانت «منقوصة السيادة» ومنزوعة السلاح ومفتقدة لوجود الجيش المصري بداخلها!!

السادسة: على الرغم من وجود «معارضة» وتعددية حزبية في العصر الساداتي ولكنها لم تكن مطلقة اليدين، بل كانت محكومة ومقيدة، وتم محاصرتها في كثير من الأحيان بعد أن ضاعفت المعارضة والأحزاب السياسية من هجومها على اتفاقية السلام وسياسات السادات.. وقد أدت المعارضة «القوية» إلى الاعتقالات ووضع المعارضين لسياسته داخل السجون.. ولكن يُحسب له افتقاد قضايا التعذيب بين ردهات السجون

والمعتقلات وقلة حدوثها بعد أن كانت ممنهجة بل ذكر لي العديد من السياسيين والإسلاميين إنهم لم يشاهدوا في عهد السادات وسائل للتعذيب وانتهاك لآدمية الإنسان كما حدث من قبل ومن بعده بصورة بشعة وممنهجة.

السابعة: من المآخذ والتي أخذها عديد من السياسيين والباحثين على أنور السَّادات واعتبارها من أخطائه الفادحة أنه صاحب «المقولة الشهيرة»: بأن ٩٩٪ من أوراق اللعبة السياسية في يد أمريكا.. فقد دفعته هذه المقولة «المشئومة» إلى الارتماء في حضن أمريكا والغرب متجاهلًا العلاقة الوثيقة بين الوجودين الإسرائيلي (الصهيوني) وبين الوجود الأمريكي من ناحية التكوين الثقافي والاجتماعي والرؤية الإستراتيجية المتطابقة بينهما والرؤية الاستعمارية لكل منهما في إقصاء أصحاب الأرض الأصليين ومحو آثارهم وتدمير وجودهم كما حدث في فلسطين من قبل الوجود الصهيوني وفي أمريكا بعد اكتشافها من الغرب والقضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحُمر !!!؟؟ وقد كتب السوسيولوجي العربيّ المعروف نديم البيطار كتابًا هامًا بعنوان «هل يمكن الاحتكام إلى أمريكا؟»، حيث أثبت عكس ذلك تمامًا بأنه لا يمكن الاحتكام إلى أمريكا نظرًا لوجود توافق بين الوجود الأمريكي والصهيوني من ناحية التكوين والبنية ولوجود تأثيرات صهيونية كبيرة في الإدارات الحاكمة لأمريكا!! ولم يدر السَّادات بأن نظريته – إن صح التعبير بذلك – قد كلفت مصر كثيرًا بابتعادها عن محيطها العربي والإقليمي، وانعزالها بعد عقد اتفاقيتي كامب ديفيد عام ١٩٧٨ واتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، حيث كان الخصم حكمًا، والعدو في السياسة صديقًا..!!

.. كما كان من المآخذ – أيضًا – على السَّادت معاداته للاتحاد السوفييتي، والتي وصلت إلى حد الكراهية – كما ذكر مراد غالب في مذكراته والتي عرضنا طرفًا منها من قبل – رغم ما أداه الاتحاد السوفيتي لمصر في حروبها من إمدادات السلاح وبناء المصانع والمشروعات الكبرى والحفاظ على سماء مصر في أحلك الظروف وخاصة في حرب الاستنزاف..

فلم يكن السَّادات في عناده ومعاداته وكراهيته للاتحاد السوفيتي مبررًا مقبولًا ، ولم يحتفظ في السياسة بـ «شعرة معاوية» ، والتي لا تقطع ما دامت المصالح قائمة بينهما ، ولكنه قطعها وطرد الخبراء السوفييت العسكريين، وإلغاء معاهدة الصداقة المصرية – السوفييتية .. ولم يكن ذلك إلا تمهيدًا للتحالف مع الغرب والارتماء في أحضان أمريكا..!!

الثامنة : ومن المآخذ والتي أخذت على سياسات «السَّادات» هو قيامه بعد القضاء على مراكز القوى ومعاوني عبد الناصر في مايو ١٩٧١ باستعادة علاقته بالإخوان المسلمين، والمطالبة بعودة قيادتهم من الخارج (مثل سعيد رمضان / سالم نجم / د. يوسف القرضاوي / عبد الرؤوف مشهور.. إلخ) ، وإخراج قيادتهم من السجون (مثل عمر التلمساني .. وغيره) ، والاستقواء بهم وبالجماعات الإسلامية، وليس في عودتهم وإخراجهم في حد ذاته ما ريد أو يطعن.. ولكن عودتهم من الخارج وإخراجهم من غياهب السجون وظلمات المعتقلات كان يتقصد منه مواجهة التيار الناصري واليساري والشيوعي داخل الجامعات المصريّة وعلى المنابر الإعلامية والسياسية، حيث كان دور محمود جامع في استعادتهم من الخارج بتكليف من لسادات كما ذكر جامع في كتابه «عرفت السَّادات» ، وكذا كان دور محمَّد عثمان إسماعيل قويًا في تكوين الجماعات الإسلامية داخل أروقة الجامعات!! ودور عثمان أحمد عثمان واضحًا في تدعيم علاقة السَّادات بقيادات الإخوان المسلمين.. ولكن كان السَّادات في هذا الأمر كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث كانت نهايته «المفجعة» و«المحزنة» و«المأساوية» على يد إحدى هذه الجماعات المتشددة وفي عيد السَّادات المعروف بيوم ٦ من أكتوبر عام ١٩٨١ وهو في أبهى حلة ومتشح بوشاح القضاء وعليه أوسمة ونياشين تتناسب مع زهوه في هذا اليوم – بعد أن انقلب السحر على الساحر – وبعد أن خرج «المارد» من «قمقمه» ، ولم يستطع أحد كبحه ومسك خطام حصانه الجامح..!!